المشرق

بعض اديار مصر القديمة .

لحضرة الاب ميخائيل جوليان اليسوعي

قد أتفق لنا في اسفارنا في انحاء مصر ان نتعهّد آثارًا عديدة واديارًا قديمة سكنها القديسون من اهل النسك والزهد الذين عاشوا على طريقة القديس باخوميوس والقديس انطونيوس وادهشوا العالم بتقشفاتهم وفضائلهم . وهذه الاخربة لا يقصدها السياح لانهم لا يشاهدون فيها من فخامة البناء ودقيق الصناعة وغريبها ما يشاهدونهُ في آثار الفراعنة والبطالسة . واماً الوطنيُّون فلا يهتمون بهذه البقايا المسيحيَّة ولعلَّهم يجهلونها جهلًا تامًّا وسنقتصر في مقالتنا هذه على ذكر اهمّ هذه الاديار القديمة التي تستحق الاعتبار والنظر والتي لم يسبق لنا الكلام عنها من قبل مكتفين فقط بوصف ما رأيناه رأي العين وما سمعناهُ ممَّا لهُ علاقة بحياة القديسين الذين اقاموا فيها . ولا شيء احبَّ لدينا من تدوين اعمال اولياء الله . ولنفتتح الكلام مبتدئين بالشمال

١

دير القديسة دميانة

يرى المسافر شمالي المنصورة على طرف الارض الملحة والمستنقعات التي تنتهي بها مصر السفلى من ناحية البحر ديرًا جميلًا يعتبرهُ الاقباط اجلَّ اعتبار ويسمونهُ دير الستّ دميانة وهو نفس الدير الذي قضت فيهِ دميانة العذراء حياتها وهناك تمَّ استشهادها في أيام الاضطهاد الذي اثارهُ على المسيحيين ديوقليسيانوس الملك . ويحج الاقباط افواجًا

الى هذا المقام من كافة انحاء مصر السفلى يوم ذكر تدشين الكنيسة في ١٠ أيار

ولمَّا كان السيد مكسيموس اسقف هرموپوليس الكبرى الكاثوليكي في الاسكندريَّة رغب يوماً ان يزور دير الست دميانة وهو عائد الى كرسيه في المنيا فصحبتهُ في سفرهِ

فسرنا الى هذا الدير راكبين السكَّة الحديديَّة المنشأة حديثاً وهي توازي الساحل مارَّةً ببلدة بلقاس . وبلقاس على مسافة اثني عشر كيلومترًا من الست دميانة جنوبيَّها

وكنَّا في اثناء المسير نُقرّ العين بمشاهدة مدنٍ عديدة كانت في سالف الاعصار مقاماتٍ للاساقفة كدمنهور المعروفة قديمًا بهرموپوليس الصُغرى . ثمَّ دسوق التي بقربها كانت مدينة نوكراتيس عند قرية نبيره الحاليَّة . ثم شبَس الشهداء وهي كباسا (Cabasa) القديمة التي على اسمها سُقف قاصد مصر الرسولي شرفًا ثم سخا (Xoïs) احدى عواصم مصر في غابر الزمان . ثم آخرًا بلقاس وكانت تُعرف باسم ديوسپوليس وهي پينامیس القديمة

وبلقاس قرية كبيرة عامرة وهي قصبة المركز المنسوب اليها الذي يُعدّ كاعظم مراكز مصر . فاستقبلَنا « العمدة » واكرم وفادتنا وهيَّأ لنا المطايا لنركب الى الدير قبل ان ينشر الليل لواءهُ

ولمَّا جزنا القرية مررنا بالقرب من كنيسةٍ للقبط الارثدكس ذات قبابٍ عالية جميلة . ثم سرنا في وسط مزارع نضرة مجارين لترعةٍ من تُرع الريّ . ثم مالت بنا الطريق الى اليمين وتغيَّرت علينا المناظر فلاحت لنا سهول فسيحة ضويَّة النبات قليلة الربيع تحدُّها الاخاديد العميقة وتتخلَّلها مجاري المياه . امَّا القرى في تلك البطاح فعبارة عن سور من الطين اشبه بحظيرةٍ في ضمنهِ صفوف اكواخ حقيرة يسكنها عَمَلة شركة زراعيَّة تُدعى « شركة البحيرة » نسبةً الى مديريَّة البحيرة المجاورة للاسكندريَّة في غربيّها . وهذه الشركة قد ضمنت مسافة ٤٢٠٠٠ هكتار من الارض البائرة لتستثمرها وتحسّن تربتها . وقد نالت هذه الشركة ارباحاً وافرة وهي تفضِّل الطرائق الزراعيَّة الاقتصاديَّة المألوفة في مصر على اصول الفلاحة المستحدثة واختراعاتها المستجدَّة التي تقتضي في الغالب نفقات عظيمة ولعلَّها لا تصلح لهذه البلاد

ومن آفات المزارع في هذه النواحي (اللهمَّ الَّا الأرُزّ) ما يخالط التربة من الملح .

وقد حُفرت الجداول في وسطها ليجري اليها الماء العذب فيحلّل الملح واذا تحلّل الملح صار ثقلهُ اعظم فجرى الى الاخاديد العميقة التي ذكرناها . وهي فنيٌّ تُدعى مراكف(؟). وقد اتّفق مرورنا بكثير منها فوق معابر لا تصلح الّا لمرور الماعز . وهذه المعابر تتألّف من خشبتين دقيقتين عرضهما ٥٠ سنتيمترًا فوقهما شيء من الحشيش والمدر يُرى من خلالها الماء الجاري . واذا بلغت الدابّة احد هذه المعابر الخطرة صاح بها الحمّار: « رجلك » فاخذت حذرها ومرّت على رسلها سالمةً

ولمّا انتهينا من عبور هذه الخنادق وقع نظرنا على الدير فلاح لنا في وسط هذه الارض القفرة على هيئة تأخذ بمجامع القلب . وذلك انك ترى قبابهُ البيضاء تعلو سور الدير على شكل صومعة ذات طبقات متعدّدة . وكانت الشمس عند مغيبها ترسل على هذه الابنية اشعتها الذهبيّة فتنعكس صورتها على الأُفق . ومن يراها عن بعد يخالها كنيسة روسيّة بديعة الحسن نُقلت من صحاري الشمال الى بطائح الشرق المنيرة . وهكذا كان وصفها لنا احد المهندسين المتولين سقي النيل لمّا علم انّنا ناوون زيارتها فتحقّقنا صدق وصفهِ . ثم مشينا في سبخةٍ لا يُرَى فيها اثر الزراعة وانّما تنبت فيها بعض اعشاب رمداء كما في السواحل الى ان بلغنا الدير فاذا هو بناء مربّع تكسير جوانبهِ ستُّون مترًا على التقريب . وبابهُ الى الشرق يقوم بحراستهِ كثيرٌ من الخدم

فلمّا دخلنا ارسلنا الى الرئيس كتاب وصاةٍ كان اصحبنا بهِ خوري القبط الارثدكس في المنصورة . فما لبث الانبا بطرس ان نزل ليستقبلنا واحتفى بنا مرحّبًا قبل ان يسبر غورنا . وكان سيادة المطران مكسيموس قد ترع خاتمهُ واخفى صليبهُ ليبقى بصفة كاهن بلديّ مجهول امّا انا فكنتُ على هيئة سائح افرنجي

وكان هذا الرئيس ربعةً قصير القامة في مقتبل العمر لهُ لحيةٌ خفيفة لطيف الطباع كثير المؤانسة . وفي الدير ثلاثة كهنة اعزاب ينتمون الى رهبان القديس انطونيوس الّا انهُ ليس ثمّت اثرٌ للقانون الرهبانيّ ولعلّهم قضوا مدّةً في احد اديار نطرون او الاسقيط وليس شيء آخر يفرق بينهم وبين بقيّة الكهنة الارثدكسيين . ولمّا اجتمعنا بهم اكّد لي احدهم انهُ يعرفني وانهُ لقيني قبل بضع سنوات في اورشليم . فتذكرت اذ ذاك انني كنتُ يوماً في القدس اتجوّل على جبل الزيتون قريباً من الابنية الروسيّة التي هنالك اذ لقيني كاهنٌ ظننتهُ من الحبش فكاشفني عن رغبتهِ في اتّباع العقائد الكاثوليكيّة

وكأنَّ رؤساءهُ وقفوا على نيَّاتهِ فنفوهُ بعد ذلك الى دير الست دميانة ليحيد عن فكرهِ بالاهتداء. ولثلاَّ يعود يجتمع بكاهن كاثوليكيّ

ثم طلبنا الى الرئيس بان يفيدنا شيئاً عن تاريخ هذا الدير فعمد الى كرَّاس مخطوط على جدولَين قبطيّ فعربيّ يتضمَّن قصَّة القديسة « دميانة » ومنهم من يروي" جميانة ». والكرَّاس عبارة عن خمس عشرة صفحة مزيّن بنقوش غير محكمة التنميق ولا اظنُّهُ يتجاوز ما وراء القرن السادس عشر. مؤلفهُ يوحنَّا اسقف بُرْلس يقول في مقدَّمتهِ انهُ حظي بهذه الترجمة المكتوبة بخط القديس يُسطوس صاحب تراجم كثيرٍ من الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الايمان على عهد ديوقليسيانوس. واليك خلاصة حياة القديسة دميانة

كان ابو الشهيدة يُدعى مرقس وكان والياً على مدينة صفران التي موقعها قريباً من الدير في جنوبهِ الشرقيّ. ولمَّا بلغت دميانة سنَّ الزواج اراد ابوها تزويجها امَّا الفتاة فابت قائلةً: « كلاَّ ان عروسي هو السيّد المسيح. لكنني ارغب اليك ان تبني لي ديرًا انقطع فيهِ مدَّة حياتي الى خدمة الله وحدهُ ». فلم ير ابوها بدًّا من اجابة طلبتها وابتنى لها ديرًا في مكان الدير الحالي فسكنتهُ دميانة مع اربعين من العذارى اللواتي زهدنَ على مثالها بالدنيا وشاطَرْنها نصيبها في خدمتهِ تعالى

ثم بلغ ديوقليسيانوس خبرها فبذل غاية جهدهِ ليستميل اباها الى عبادة الاوثان وما زال يغريه بالوعد والوعيد حتى نال منهُ مبتغاهُ ورقَّاهُ جزاء لكفره الى رتبة الولاية على فرامة وكانت مدينة كبيرة على جوار بلوزة

امَّا دميانة فاشجاها الامر ايَّ شجًا ومن وقتها لحقت بابيها ولم تزل تتوسَّل اليهِ حتى اناب الى الله واضرمت قلبهُ ندامةً على فعلهِ. لكنَّ الامبراطور استشاط عليهِ غضباً وامر بقطع راسهِ ثم اوفد فرقةً من الجند الى وادي قيزبان حيث كان دير دميانة فانتهكوا حماهُ ونكَّلوا بالقديسة دميانة تنكيلاً ثم القوها في سجن مظلم حيث تراءى لها الملاك ميخائيل فابرأها من جراحاتها. الَّا انَّ الجلاَّدين عادوا الى عذابها وعذاب رفيقاتها وقطعوا آخرًا رؤوسهنَّ وذلك في ١٣ من شهر طوبه (٢١ كـ ٢)

وفي الكرَّاس الذي لخصتُهُ اقاصيص عديدة وتفاصيل خياليَّة غريبة زادها الكاتب على مألوف عادة الاقباط. وقد طُبعت حديثاً ترجمة هذا الكتاب العربيَّة في القاهرة بهمَّةِ وكيل اوقاف مطران القدس

وكان الليل في اثناء ذلك بسط اجنحتهُ. اذ جاء ثلاثة من اصحاب تقويم الاملاك وطلبوا في الدير محلًّا يأوون اليهِ فاضطجعوا تحت الرواق الذي كنا فيهِ نتجاذب اطراف الحديث ملتحفين باغطيتهم فلم نحبّ ان نزعجهم واوينا نحن ايضاً الى الفراش مؤجلين زيارة الدير الى غدٍ

وكانت زيارتنا الاولى في صباح اليوم التالي لكنيسة الدير. وعلى بابها كتابة قبطيَّة تفيدنا انَّ السيد باسيليوس مطران القدس على الاقباط رمَّم الكنيسة والدير في سنة ١٦٠٣ للشهداء الموافقة للسنة ١٨٨٧ المسيحيَّة. والدير تحت حكم هذا الاسقف الذي تمتدّ ابرشيَّتهُ على قسم كبير من مصر السفلى

واذا تجاوزت الباب دخلت في بناء فخيم مستدير يدهش الابصار وفي صحنهِ قبر القديسة الشهيدة ورفيقاتها الاربعين تعلوهُ قبَّة باسقة تقوم على اربع دعائم وكل دعامة عبارة عن اربعة اعمدة ضُمَّت الى بعضها وحول هذه الدعائم سوقٌ واسع على شكل الحلقة. اما القبر فهو شبيه بدكَّة مربَّعة علوُّها نحو مترٍ وجوانبها اربعة امتار وعلى هذه الدكَّة صورة صليب عريض ناتئ. وقد طُلي القبر كلهُ بدهون على شبه الرخام. وفي جهة الغرب هيكل يستند الى المشهد. وبازائهِ من جهة الشرق معبدٌ يُعتبَر كمدخل للكنيسة الكبرى التي هي قديمة العهد لكنَّها غليظة البناء ليس فيها اثرٌ يُذكر اللهمَّ الَّا اخشابها المشبَّكة ذات المربَّعات الدقيقة الصنع المنزلة بالعاج ومثلها كثير في كنائس الاقباط العتيقة

اما بقيَّة الدير فلم نرَ فيهِ ما يستلفت النظر فانَّهُ يتألف من مجموع غرف غير منسَّقة وقاعات عموميَّة وباحات وسلالم أُلحق بعضها بالبعض بلا نظام ولا هندام في ازمنة متباينة على مقتضى حاجة رهبان كل عصر. لكنَّهُ لا ينقصهُ شيء من لوازم المعاش والمتانة ولو حاصرهُ عدوّ لاستطاع سكَّانهُ ان يصبروا على الحصار اياماً ريثما يأتيهم المدد من الخارج. وللدير املاك تبلغ سعتها ١٢٧ هكتاراً وتربتها جيِّدة تكفي غلاَّتها لمعاش الرهبان واصلاح ما خرب من ابنيتهِ

وقد لحظنا في هذا الدير من النظام وسعة العيش والسكينة ما كان لنا اقوى دليل على حسن ادارة رئيسهِ الانبا بطرس وثقة مرؤوسيهِ بهِ

ومن سطوح الدير يمتدّ النظر شمالًا الى سهولٍ قفرة غبراء تنتهي بكثبانٍ من الرمل

وراءها البحر وليس هناك ما ينبئ بوجود البشر الّا بيت حقير فوق رابيةٍ يأوي اليهِ ناطور الشواطئ ومياه تُرعٍ شبيهة بالنضار تجري فيها قوارب صغيرة وكذلك بعض قطعان من الغنم السود تسرح في تلك الفيافي. امّا جهتا الشرق والغرب فلا تميّز العين في آفاقهما سوى خطوطٍ قاتمة يخيّم فوقها سحابة تدلُّ على قرًى تحجبها غابات النخل

وكان رجوعنا الى القاهرة في مساء ذلك النهار على طريق المنصورة وطنطا في السكّة الحديديّة التي تسير في وسط بقاع لا يشاكلها غيرها في مصر زكاء وخصباً

٢

مدينة البهنساء

من المدن القديمة الشهيرة بالآثار مدينة البهنساء وكان اسمها في غابر الاعصار أُكسِرنكوس (Oxyrrhincus) وهو اسم سمكةٍ تُعرف اليوم في مصر بالقثّومة (mormyrus oxyrrhincus) ودُعيت البهنساء بذلك لان اهلها كانوا يعبدون هذه السمكة كما كان يعبد الكلاب اهلُ كينوپوليس وهي مدينة كانت قائمة بازاء البهنساء على ضفّة النيل تُعرف اليوم بشيخ فضل. وحدث في احدى السنين انَّ اهل كينوپوليس اصطادوا سمك القثّومة فاكلوهُ فاغتاظ اهل البهنساء واكلوا لحم الكلاب انتقاماً منهم فنشبت لذلك حرب بين المدينتين لم يخمد سعيرها الّا بتوسُّط الجنود الرومانيين الذين فصلوا بين الفريقين

ثم لاحت انوار النصرانيّة في مصر وكان اهل مدينة البهنساء ممَّن اكتحلوا منذ القرون الاولى بدين المسيح ونبذوا شناعات الوثنيّة وامتازوا بعد حين بقداسة السيرة وزهد كثيرون منهم بالدنيا حتى صارت البهنساء تُعدّ كمدينة الزهاد والرهبان

ولنا على ذلك شهادة صريحة في الفصل الخامس من كتاب روفين (Rufin) المعنون تاريخ الرهبان (١ فان هذا الكاتب الشهير قدم في اواخر القرن الرابع للمسيح ومعهُ القديسة ميلانية وزار البهنساء فوجد فيها عشرة آلاف راهب وعشرين الف راهبة عذراء. وقال ما تعريبهُ :

« وبلغنا احدى مدن الصعيد حيث وجدنا الدين زاهرًا اي ازدهار حتى انَّنا لو اردنا بيان الحقيقة كلّها لنسبنا القرّاء الى المبالغة فان المدينة تغصُّ بالرهبان وفي ظهرانيها عدد لا يُحصى من الاديار

١) راجع مجموع الاباء اللاتين لمين (الجلد ٢١ ص ٤٠٨)

وقد حوّل الجمهور الابنية العموميّة وهياكل الاوثان الى مساكن يأوي اليها النسّاك. وعدد الاديار في هذه المدينة يفيف على عدد بيوتها. وهي تحتوي على اثنتي عشرة كنيسة عمومية فضلًا عمّا لكل دير من المعابد الخاصّة. هذا وانّ ابواب المدينة وابراجها واسوارها وكل خلواتها قد اصبحت ملاجئ لاذ بها الرهبان فتراهم يقيمون فيها ليلًا مع نهار وهم يسبّحون الله ويمجدونهُ بحيث تحسب ان المدينة كلها كنيسة واحدةٌ. ولو اراد الاسقف ان يقيم الصلاة في ساحات البلد لامكنهُ ذلك كما في الكنيسة لانّ سكانها كلهم من الكاثوليك ليس بينهم وثنيّ ولا مبتدع. وقد اقام الوجوه والاعيان بينهم رجالًا على ابواب المدينة لينبّوهم بقدوم الغرباء والفقراء ليسرعوا الى دعوتهم الى بيوتهم ويتحفوا بهم ويقضوا حاجاتهم. . . »

وقد دوّن التاريخ اسماء بعض القديسين الذين اشتهروا في البهنساء. منهم سنوثيوس او شنُوده(١ الذي استشهد على عهد ديوقليسيانوس. والقبط يذكرونهُ في ١٤ برمهات(٢٤ اذار). ومنهم الاسقف تاودورس او تاذرس احد مقاومي الشيعة اللوسيفريّة. والاسقف أبفي جامع اقوال الآباء (٢. وكان هذا في اوّل امرهِ ناسكًا كثير التقشُّف والاماتة. فلمّا صار اسقفًا رأى نفسهُ عاجزًا عن مواصلة تلك العيشة الشظفة فشكا امرهُ الى الله بقولهِ: « اللهمّ اتكون حرمتني نعمتك بسبب الاسقفيّة ». فاجابهُ الربّ: « كلّا لم تفقد نعمتي. وانّما كنتُ اعينك بذاتي على ممارسة اعمال التوبة لمّا كنتَ في عزلةٍ عن البشر. امّا اليوم وقد صرتَ في وسط العالم فانّ الناس يتولّون ترويضك في سُبل الفضيلة »

ومع ما كانت عليهِ البهنساء من الدين والتقوى تمكّن الشيطان خزاهُ الله من زرع بذور الشقاق في وسطها. وقد انتصر بعض اساقفتها للملاطيوس بطريرك انطاكية وتبعوهُ في ضلالهِ (٣ وكذلك البدعة اليعقوبيّة فانّها نالت من اهلها واضلّتهم سواء السبيل

والبهنساء في ايّامنا عبارة عن قرية متوسّطة في الكبر موقعها على الضفّة الغربيّة من ترعة بحر يوسف بازاء محطّة بني مزار بين المنيا وبني سويف على بُعد متساوٍ منهما

ولمّا لم اجد احدًا من معارفي تعهّد البهنساء ونواحيها صمّمت العزم على زيارتها

---

١) راجع تراجم الابا الفصل الخامس

٢) قد نُشر هذا الكتاب باللاتينية واليونانية جمعهُ كوتلّاريوس

٣) راجع الشرق المسيحي للوكيان

مع احد الرهبان من جمعيّتنا وسلّمنا امرنا الى شيخ الحمّارين في بني مزار ليقودنا الى تلك الجهات وكان بعض الركّاب اجتمعنا بهِ في القطار وصّاهُ بنا وعظّمنا عندهُ زاعماً أنّنا من اصحاب المراتب السنيّة

فكان مسيرنا الى جهة الغرب على طريقٍ زراعيــة لاحبة . وبعد ان قطعنا خطّين من السكك الحديديّة أُنشئا هناك لنقل قصب السكر لمعمل مغاغة عبرنا اربع ترعٍ من تُرَع السقي فبلغ بنا المسير بعد ساعةٍ ونصف الى قرية اشروبة وعنــدها آخر الطريق . ومن ثم مشينا في مسالك ضيّقة تتخلّل الحقول ادّت بنــا في اقلّ من ساعة الى قرية كبيرة تدعى سندافة وهي بازاء البهنساء ليس بينهما سوى ترعة بحر يوسف

فسار بنا المكاري توًّا الى بيت العمدة وادخلنــا ديوانهُ دون تكلفةٍ . وكان شيخ الضيعة جالساً وحولهُ بعض الفلّاحين يقضي بينهم ويحــلُّ مشكلاتهم . فلمّا رآنا القوم تعجّبوا اوّلًا من زيّنا الاوربّي وهم لم يعهــدوا مثل ذلك سابقًا . لكنّ شيخ الحمّارين ازال اندهاشهم ووصفنا لهم باحسن الصفات واعظم الالقــاب . فقام العمدة من فورهِ واخذ يبالغ في اكرامنا وامر بان تُعدّ ذهبيّتهُ لركوبنا ولم يرضَ ان نجتاز الترعة على زورقٍ بسيط ثم فوّض الى ستّة من رجالهِ ان يُرونا في البهنساء كلَّ ما نحبُّ تفقُّدهُ

فقطعنا الترعة وعرضها في هذا المكان كعرض نهرٍ ثم ولجنا طريدةً من البساتين لقينا وراءها خَرْقًا من الرمال القاحلة في وسطهِ جدران ماثلة ومنــاور متداعية وقبور مقبّبة استولى عليها الخراب . وترى غربيَّ ذلك الفضاء أنجاد الصحراء الليبيّة قد تواصلت بها الرمال فغطت قسماً من آكامهــا الصخريّة . وان حوّلت النظر الى الشمال رأيت كثبانًا من الرمل تتمثّل فوقها اسوار البهنساء وبروجها ومناورها . ففي هذا القاع وفوق تلك الرُّبى كانت مدينة أُكسيرَنكوس او البهنساء القديمة . والحقُّ يُقــال انَّ النسّاك الاقدمين لم يكونوا ليجدوا مقاماً احقَّ بهم واولى بمناسكهم وتعبُّداتهم لما في ذلك القفر من اسباب العُزلة ودواعي التنسُّك مع سعتهِ وقربه من المياه والمزدرعات . فمن شاهد المكان لا يشكُّ في أن جماعةً من الرهبان تبلغ عشرين بل ثلاثين الف راهبٍ امكنها ان تعيش فيهِ عيشاً هنيئاً في السكينة والسلام

ثم رقينا هناك ربوةً يُرى فوقهــا عمود من الصوّان ماثل وهو من بقايا احدى كنائس البلدة فاشفينا على البطحاء كلّها وكانت العين تميّز في الجنوب الغربيّ مقبرة

الاقباط وقبورها المكلّسة التي تشبه عن بعدٍ قطيعاً من الغنم . وفي الجهة الغربيَّة يرى الناظر في السلسلة الليبيَّة شِعْبًا يؤدي الى واح البحريَّة المعروف ايضاً بواح البهنساء . اما القبَّة والجدران المتداعية التي كانت تُرى في تلك الجهة على مسافة نحو نصف الساعة فهي بقايا دير قديم كان يُعرف بدير السبع البنات . وفي تاريخ ترجمتهنَّ انَّ احد الفجَّار حاول ان يغتصبهنَّ فالتجينَ الى الله فارسل ملاكًا نقلهنَّ الى هذا المكان فابتنين لهنَّ ديرًا وعشنَ فيهِ عيشةً صالحة . وكنَّا نرى ايضاً اطلالًا دارسةً زعم الدليل انَّها آثار كنائس قديمة والامر ليس بمستبعد وقد افادنا المقريزي في كتاب الخطط ان عدد كنائس البهنساء كان يبلغ سابقًا ٣٦٠ كنيسة . والشيخ ابو صالح الارمني من كتبة القرن الثاني عشر قد عدَّد خمس عشرة كنيسة في البهنساء في زمانهِ (١

ثم تابعنا مسيرنا الى الشمال فسرنا مدَّة ثلث الساعة في مدافن يُنزَل اليها بآبار محكمة البناء عمقها ثلاثة او اربعة امتار . وقد استخرج منها اهل العاديَّات اجساماً محنَّطة بقي في الرمل كثيرٌ من آثارها كلفائفها وعصائبها وقلائدها واسوارها فيها خرز من السَّبَج او الزجاج . وشاهدنا بين هذه البقايا المتحطِّمة عددًا وافرًا من الآنية الخزفيَّة وهي مقعَّرة على شكل البواتق وفي قعرها قطعُ ملح متبلورة مشوبة بمادَّة رمداء . ولعلَّ هذه الآنية كان قدماء البهنسيين في ايام عبادتهم للسمكة قُثُومة يتَّخذونها ليجعلوا فيها موميا معبودهم محنطة بالنطرون

واخبر الثقة انهُ قبل زيارتنا للبهنساء بنحو سنةٍ كان قد اتاها باحثان انكليزيَّان احدهما المستر هُنت والآخر الجنرال غرنفل فحفروا في بعض الامكنة واستخرجوا منها سرًّا عاديَّات كثيرة اودعوها في ٢٨٠ صندوقًا وحمَّلوها ستَّة عشر جملًا وكان في جملة هذه العاديَّات اوراق من البردي او البابير وجدوها في حفرةٍ غربيَّ الضيعة

وقد اذاعت المجلَّات العلميَّة خبر هذه الكتابات ووصفها المشرق في سنتهِ الاولى (ص ٣٣٢ و ٥٧٩) وذكر انَّ في جملتها قطعاً من مجموع اقوال الربّ (Λόγια) لقديس پاپياس تلميذ الرسول يوحنَّا الحبيب (٢ وهي مكتوبة بخطّ يونانيّ غليظ

١) راجع خطط المقريزي (ج ٢ ص ٥١٨) وتاريخ ابي صالح طبعة اكسفرد (ص ٩٣ و ١١٨)

٢) راجع مجموع الآباء اليونان لمين (ج ٢٠ ص ٣٠٠)

يُظن انهُ يرتقي الى القرن الثاني عشر او الثالث عشر

وفي هذا المكان اطلال عديدة لكنائس واديار قديمة تُرى خصوصاً شماليّ القرية منها جدران وعقود واعمدة صوّان اكثرها غائص في الرمل . ولحظنا فوق ربوةٍ سبعَ دعائم مصفوفة كأنها مهيّأة ليُجعل فوقها اعمدة لكنيسة . وقيل لنا ان النساء الحبالى من كلّ الاديان يأتينَ ويصلينَ في هذا المكان فينلن النجاة

وبعد تجوُّلنا بين هذه الاخربة وصلنا اخيرًا الى قرية البهنساء الحاليَّة . ومعنى البهنساء في القبطيَّة « الزواج » . قال الشيخ ابو صالح (ص ٩٤) وسبب تسميتها لأنها « بُنيت لجوارٍ من بنات الملوك عذارى تزوجوا (كذا) لابناء الملوك من هذه المدينة »

ومن آثار البلدة الحاليَّة الجامع المعروف بالمعلّق وهو محكم البناء جميل الهندسة في سقفهِ نقوش بديعة بالالوان والذهب . وحول الجامع غرف وابنية حسنة لاحقة بهِ . وفي الايوان عمود من الصوّان الورديّ عليهِ كتابة يستفاد منها انّ السيد الشريف الحاج مصطفى جدَّد بناء هذا الجامع . وفي كتابة أُخرى تاريخ البناء وذلك سنة ١٠٩٢ للهجرة (١٦٨١ م)

وبينما كنّا نعتبر هذا الاثر الجليل من الهندسة العربيَّة ونبحث عن خواصّهِ اذ سمعنا جلبةً وراءنا . فالتفتنا واذا بعُمدة البهنساء ومعهُ اهل الضيعة وهو ينتهر من رافقنا من اهل سندفة ويخاصمهم لأنهم ادخلوا اناساً غرباء الى البهنساء دون رخصتهِ . وكان الفريقان في عياطٍ ومياط فخفنا ان يحصل بسببنا ضرر لرفقتنا ورأينا من الصواب ان نسرع عائدين الى سندفة لقصّ جناح الفتنة . الاّ أننا تمكنّا قبل خروجنا من زيارة جامع آخر كان الاهلون يشتغلون في ترميمهِ . وهو جامع الحسن بن صالح . وجدنا فيهِ اخشاباً جميلة النقش بديعة الصنع ترتقي الى زمن الدولة الفاطميَّة . امّا اعمدة الجامع فهي مختلفة الاصل ذات هيئات شتى قدّرنا انها سبقت ايام الفتح الاسلامي ولعلّها كانت تزين كنائس قديمة تهدّمت

(التتمّة لعدد آخر)